ساوَة ، هذا على حين يملأ هُتافُ الجِنِّ أرجاءَ السماء ويعمُّ الكَوْنَ كلَّه نورٌ ساطع :

وباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أصحابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِم
والنارُ خامِدَةُ الأنفاس من أسَفٍ ... عَلَيْهِ والنَّهْرُ ساهِي الْعَيْن من سَدَم
وساءَ ساوَةَ أن غَاضَتْ بُحَيْرَتُها ... و رُدَّ وارِدُهَا بالغَيْظِ حِينَ ظَمِي
والجِنُّ تَهْتِفُ والأنْوَارُ ساطِعَةٌ ... والحَقُّ يظهر من مَعْنى ومِنْ كَلِم[1]

وينتقل في الفصل الخامس إلى الحديث عن بعض ما تَناقَلَه كتب السِّيرة عن معجزات الرَّسول ﷺ ، وما ظهر على يده من خوارق العادات : سجود الشَّجرة ومَشْيُها نحوه ، وتَظْليلُ الغَمامَة إيَّاه ، وانشقاقُ القمر ، وهنا نرى البوصيري يعقد مقارنةً طَريفة لعلَّه أوَّل من ذكرها بين هذا الانشقاق ، وما يُذْكر من شقِّ المَلَكَيْن لقلبه رمزاً لتطهير روحه من كلِّ رِجْس ، ثم وقاية الله له من تعقُّب مُشرِكي قريش حينما لجأ إلى الغار ، فصرف الله كيدهم عنه بعد أن رأوا الحمام مُعَشِّشاً والعنكبوتَ ناسجاً خيوطَه على بابه :

جاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً ... تَمْشِي إليهِ على سَاقٍ بِلا قَدَم
مِثْلَ الغَمامَةِ أنَّى سارَ سائِرَةً ... تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجيرِ حَمِي
أقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ ... من قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَم
وما حَوَى الغارُ من خَيْرٍ ومن كَرَم ... وكُلُّ طَرْفٍ من الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لم تَنْسجْ ولم تَحُم[2]

ومع أن الإسلام لا يَعْتَدُّ كثيراً بهذه المعجزات ، ولم يردْ بعضها في كتب السِّيرة الأولى فإن عامَّة المسلمين يُرَدِّدونها في انبهار وإعجاب ، وقد ضَخَّمها

(١) السَّدَم : الغيظ والحُزْن ، غاضَت : جَفَّت .

(٢) الوَطيس : اللَّهيب ، والهَجير : ساعة الظَّهيرة عند اشتداد الحر .